

**أجمل الخطوات**

كل الجهات لا تعني له شيئًا، فقط لم يتعرَّف إلا على جهة واحدة: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: 79]، كان إبراهيم عليه السلام كثير الأوبة والرجوع إلى مولاه، كثير التأوه على ذنوبه وخطاياه؛ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 114].

وقال إني ذاهب، ذاهبٌ في أجمل وأمتع سفر في الحياة..

مهما تعدَّدت وجهات السفر يظَلُّ السفر للهادي جل في علاه وجهة المهتدين.

كلما تُهت يمينًا أو شمالًا اتجه إليه، إليه وحده فهو من يلم شعثك، ويهدي حيرتك، ويجبر كسرك، ويكتب أجرك، ويرفع قدرك، ويبقي ذكرك، ويضوِّع نشرك.

كل الطرق تُودِي بك إلى الهلكة إلا طريقًا سلكتها إليه قدمُه التي تراها في المقام هي آخر خطوة خلدها الله في تلك الرحلة وهي خلاصة الرحلة وثمرة الرحلة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: 125].

انفتح على الكون وجهاته، وحاور الشمس والقمر والنجوم، ثم قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات: 99].

إذا عزَمت الرحيل إلى الله أعطاك الله لسانَ صدقٍ، فأثنى عليك الناس بأثرك الجميل الذي تركته بعد رحيلك ودعوا لك وبقي خيرك.

يذكر العلماء وكتاب التاريخ أن إبراهيم انتقل من جنوب العراق، ثم هاجر إلى حران، ثم سافر إلى أرض كنعان في الغرب، ثم إلى أرض فلسطين ثم إلى مصر، وقد ارتحل إبراهيم عليه السلام من مسقط رأسه إلى الشمال الغربي في حران مسافة ستمائة ميل، ثم بعد ذلك لما أمره الله تبارك وتعالى أن يتجه إلى أرض كنعان، ارتحل إلى أرض كنعان فتبعد أربعمائة ميل، بعد ذلك لنا أن نتصور المسافة من أرض كنعان إلى أرض مصر؛ حيث قابل الفرعون هناك، وهذه الرحلة تقدر بألف وخمسمائة ميل.

ثم بعد ذلك تنقله بين أرض الحجاز والقدس بأمر الله تعالى، إنها رحلات طويلة متعبة في تلك الصحارى القاحلة وكأني بإبراهيم قد قضى حياته سفرًا.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ [العنكبوت: 26]، تلك الرحلة الشيقة الماتعة هي الرحلة التي يحزُم فيها العبد حقائب روحه إلى الله تعالى، وينطلق باسم ربه سائلًا ربه الثبات، وعدم الانحراف في المسير!

يذهب الخليل إبراهيم عليه السلام لربه، وهو صاحب القلب السليم فما أحوجنا نحن أن نحزم أمتعة قلوبنا فورًا.

ولتعلم أن ربَّك إن رأى الصدق في قلبك والعزيمة في رُوحك أرشدك إلى معالم الطريق، فوصلت بسلام، وكل طريق لا توصلك إليه، فغايتها الهلكة، ومن عزم على السير إلى ربه صاحبته السلامة وغشيته النجاة، وكانت كل خطوة يخطوها إليه سلم للنجاة من الشتات والعاقل الأريب مَن يذهب إلى الله اليوم طوعًا لا غدًا كرهًا.

لا أجمل ولا أمتع في حياتك من أن تسير إلى الله تعالى بقلب صادق ورُوح توَّاقة، ونفس مطمئنة وخطى ثابتة، متزودًا من الوحي، ومستبصرًا بالحق، ومقتفيًا أعلام السير الذين وصلوا إلى وجهة السير بنجاح.

هذا الطريق سأل عن امتداده تلميذٌ شيخَه ذات يوم إذ قال:

\*هل الطريق إلى الله طويل لأقطعه؟ قال له شيخه: هو حجاب عن قلبك ترفعه.

إن حواجز ظلام الذنوب لتمنع نور الحق من إنارة القلب، فهلَّا أزحت هذه الحواجز؛ لتغشى قلبك هالات النور الرباني.

**حواجزٌ أُغرِستْ في القلبُ تحجبهُ = لو انَّها أُقلِعتْ فالنورُ يدخلهُ**

**ليسَ الجمالُ بالوانٍ لنرقبها = إنَّ الجمالَ شغافُ القلبِ منزلهُ**

كانت أجمل الخطوات في حياة موسى عليه السلام تلك الخطوات وهو يمشي إلى النار في شدة البرد القارس، والظلام المدلهم، والحيرة المطبقة.

ولفظ: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ [طه: 10]، يدل أن المكان يحيط به الظلام الموحش، فهنا لا سوى القفار والجبال والصحارى والأدغال المتلفعة بركام الظلام، ويدل أنه كان يسير في الظلام الدامس، فلا قمر يضيء له الطريق ولا نور بيده يبصر من خلاله ما أمام قدميه، فكأني به يضع كل خطوة في المجهول يخشى هوام الأرض.

ولفظ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: 7]، يدل أنه لا دفئ هنا، فالبرد ترتجف منه الأضلاع، ويشير إلى أن الليلة كانت شاتية وبردها شديد، فهو يبحث عن دفء لجسده وأهله الذين أنهكهم طول السفر، ومشقة الطريق، وكأني به يسارع إلى تلك النار علَّه يحظى بجذوة من تلك النار يصطلي بها مع أهله.

ولفظ: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: 10]، يدل أنه قد ضل الطريق، فهو يسير إلى حيث وجهةٍ، يسير حيرانَ ما وجد دليلًا يعيد له رسم خريطة الطريق، ويوضح له معالم الطريق.

اقترب من النار فإذا به يرى نورًا لا نارًا، رأى نورًا بلغ من جماله أن جعله مدهوشًا لا ينبس ببنت شفة.

إن هذا النور نور الوصل الذي يربط الأرض بالسماء، والعالم السفلي بالعالم العلوي، والدنيا بحضيرة القدس.

كان يريد قبسًا للطريق، فزوده الله من ذلك النور قبسًا لحياته، بل قبسًا لأهله وعشيرته وقومه، والدنيا يومئذ..

بهاء لا تحيط به العقول، وجمال لا يتصوره إدراك، وسناء ما رأت مثله عين مخلوق..

ما أجلَّ هذا الموقف! ما أرهبه!! ما أعظمه!! يأتي موسى عليه السلام لموعدٍ، لا تتخيل العقولُ عظمته، يقف أمام تلك العزة وأمام ذلك الكبرياء، يقف ليسمع ألطف وأجمل وأعظم نداء:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [طه: 14].

ويسمع، ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ [طه: 13]، ما هذا الاختيار الجميل والاصطفاء النبيل! ما هذه الكرامات! ما هذه الغيوث من الرحمة والكرم والخير! ما الأسرار التي نال بها موسى هذا الفتح!

كيف صمد موسى من أن يضطرب قلبه ويموت فرحًا! ويذهب مرة ثانية ليخاطب ربه ويكلمه ويتلذذ بمناجاته من على جبل الطور فيسمع، ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف: 144].

درجة عالية ورتبة سامية وتاج من الشرف مكلل بيواقيت الحُسنِ الباهرة التي تحار أمامها عقول البشر، كانت أجمل الخطوات في حياة موسى عليه السلام هي تلك الخطوات التي كان يخطوها لملاقاة ربه، حتى إنه لما استعجل عاتبه الله بقوله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: 83].

يا لجمال تلك الخطوات، إنه يهرع شوقًا وحبًّا؛ ليحظى بسمو الجمال، وعناقيد الجلال، ومنجم الهبات، وغيث الكرامات، كأني به في كل خطوة يخطوها في الصحراء وفي الصعود إلى الجبل، يتقفز عجلة وتضطرم أحشاؤه اشتياقًا، ويخفق قلبه بين جنبيه، فله وجيب من لهفة الموعد..

انطلق موسى ليكلم ربه وفي كل خطوة كان يتخيل مدى الأنس الذي سيلاقيه في الحضرة الإلهية.

تلك الحضرة التي غشيتها ألوان الجلال، حاله أمام تلك الحضرة:

**حشود شوقي إليها يمَّمتْ زمرًا = وبين قلبي جبال الشوق تشتعل**

**وجدي بروق أضاءت كل جانحة = كأن داجيَ قلبي للضحى نُزُل**

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [طه: 84]، لَما تَمَّ الميقات بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقًا وحبًّا لربه، وحرصًا على ذلك الموعد الجميل، فقال الله له: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: 83]؛ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولِمَ لَمْ تصبر حتى تقدم أنت وهم؟

قال: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي ﴾ [طه: 84]؛ أي: قريبًا مني، وسيصلون في أثري.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾، فالذي عجَّلني إليك يا رب: طلبًا لقربك، وشوقًا لك، ومسارعة في رضاك، وقد ذكر بعض العلماء أن موسى عليه السلام أراد (شوقًا إليك) فستره بلفظ الرضا؛ أي: والذي عجلني إليك يا رب طلبًا لقربك ومسارعة في رضاك، وشوقًا إليك؛ لأن العجلة في استرضاء المحبوب علامة على صدق محبته.

سلام على تلك القلوب المسارعة، وتلك الخطوات المسابقة، وتلك النفوس المتعجلة في الخير، الطالبة رضا الله، إنك إن قصدت رضا الله فلا بد من المسارعة ألا تسمع الملك يحضك على ذلك، فيقول: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: 9]، ويقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: 133]، ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [الحديد: 21]، ويقول تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: 148].

لا تقف أبدًا..

لا تتمهل..

لا تتباطأ..

لا تفتر أو تتوانى أو تتكاسل في مسيرك لربك، ففي سنن أبي داود وغيره عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «التُّؤَدَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ فِي عَمَلِ الآخِرَةِ».

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)، ما أجمله من جواب، وما أحسنه من تعبير، وما ألذه من شعار في حياة المسلم حين يتعجل في خطاه إرضاء لربه، ويتعجل في كل طاعة حتى يلقاه، نحو الأحبة سباق مع الزمن تختصر فيه الساعات والمسافات، وكلما كنت الأعجل في الطاعة كنتَ الأحرى بالرضا، فهرول الآن وجر خطاك قبل فوات الأوان.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾، تعطيك إشارة إلى أن المؤمن يسارع في الخيرات ويبادر إلى الطاعات، ويسابق في الصالحات، ويرسم في حياته أجمل الخطوات، والمسابق هنا مسابق في تلك الدرجات؛ قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ \* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ \* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [الواقعة: 10 - 12].

وقد تقرر أن من سبق في الدنيا إلى الخيرات، يسبق غيره في الآخرة إلى الجنات، فإن السبق هناك على قدر السبق هنا، وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يحثُّ أمَّته على المُسارَعة إلى الأعمال الصالحة؛ فإن المؤمن لا يَدرِي ما يَعرِض له من مرضٍ، أو فتنة، أو أجل، أو طارئ يطرأ له في حياته.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾، اجعلها شعارًا لحياتك وأنت تحث الخطى نحو مولاك بحب وشوق، حتى تلحق بركب السائرين إليه، تقتفي خطاهم وتسير على معالمهم، وهذا الشعار إن رفعته في حياتك ستعيش مع جماله وحسنه وبهائه، فما أجمل حين يتعجل المسلم في خطاه إرضاءً لربه في كل طاعة حتى يلقاه.

الراسم أجمل الخطوات إلى الله تحفُّ قلبه السكينة، ولا يجد الحُزن إليه سبيلًا، يبقى وجه باسمًا لا يعتريه الذبول ولا الانطفاء.

يحث خطاه وهو في ذلك رافع قلبه إلى السماء والله يسمع ضجيج فُؤاده..

إن راسم أجمل الخطوات في طريقه لربه تتنزل الطمأنينة لتستقر بقلبه المنير الذي لا تخفت أنواره، ويبارك له في تلك الخطوات، فيرى أثرها واضحًا، ويبقى على مدى الزمن بصمة لا تمحى.

ولنتأمل الحبيب صلى الله عليه وسلم وهو يطوي بُسُط الأرض، وينصب له المعراج إلى السماء، فيخترقها جميعًا حتى يجاوزها، ثم ماذا بعد؟

هل كان يتخيل أنه سيكون في ضيافة ملك الملوك؟ وهل كان يخطر في باله أن ربه سيخاطبه ويكلمه ويغدق عليه سحائب الكرم وغيوث النعم؟

هذا المشهد كان أعظم مشهد في حياة الرسول، وتلك الخطوات كانت أجمل الخطوات في حياته، بل كانت أرهب وأجل خطوات خطاها.

توقَّف جبريل لأن مقامه معلوم ولو تقدم لاحترق وتقدم الرسول لأنه هو المقصود بهذا اليُمن الذي ما ناله أحد من العالمين..

لقد خصه الله بمقام القرب والتداني، وخلع عليه حُلل النور والرضوان، فهناك مشكاة الأنوار، وجناب السعد، وسمط الدرر، وبهي الطرر، وذؤابة الشرف، ومنار الهدايات، وبشير السعادات، وراحة القلوب، ومسك العوالم، ومفتاح الخزائن، وغاية المطلوب، وكأس المحبة، وبيارق العز وحجب الجلال، وعين النعيم، وقرة العيون، ومنهل المواهب، وعين اليقين ونوافح الرحمات، والنسيم الأعطر والشرف الأظهر...

هناك في تلك الحضرة بحور الكرم الدافقة، وألوية العز الخافقة، وفيها ينبوع العلوم، وسراج الفهوم، وغاية الغايات الانتهائية، وعروس الحضرات الاصطفائية، وكبرى المقامات الاجتبائية، ورفرف النور، وبساط الأنس، وفيض النوال، وأسنى المكارم وهناك منهل الواردين، وبغية القاصدين، وسدرة المنتهى..

هناك حيث لا يستطيع أحد أن يصف ما هناك، ومهما أُوتي إنسان من كنوز البلاغة وجوامع الكلم، وبدا له أن يصفها ما قدر على وصف موضع مغرز إبرة فيها.

ولو اجتمع أهل الأرض والسماء على الإبانة عما حوته من كنوز الجمال وسرادق الجلال من أول الدنيا إلى آخرها ما أمكنهم ذلك، ولا قريبًا منه ولا عشرًا من عشير ألف ألف...

وكيف يستطيع أحد أن يصفها وقد قال عنها من رآها: "فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها"؛ "رواه مسلم".

تلك المسافة التي قطعها الرسول بين السماء السابعة وسدرة المنتهى، كانت هي معقد الشرف، وكبرى التحف، وتلك الخطوات كانت أجمل الخطوات وأزكاها في حياته...

يا لهف قلب المؤمن وهو يسير إلى يوم المزيد كل جمعة لرؤية الله تعالى صاحب الملك والعزة والكبرياء والعظمة والجلال، أي خيول صاهلة تحملهم حينئذ!! هل يمكنهم أن يطيروا شوقًا بلا أجنحة!

قلوب تسير ذلك السير وهي معلقة بالعرش، معطرة بنفحات المسك الأذفر الذي يهب من على شواطئ الأنهار..

إنهم يطيرون إلى أعظم نعيم في الآخرة، وذلك السير هو أمتع سير لهم، فما ساروا سيرا قبله ولن يسيروا بعده مثله...

إذا كانت الطريق آمنة وامتلكت الزاد، وتيسَّرت الراحلة، فلا تتأخر عن الوفود إلى بيته فذاك قدوم عليه، وتلك الخطوات ستكون الخطوات الأجمل في حياتك، ولقد قرأتُ قصة مثيرة سيدونها التاريخ كرحلة من أعظم الرحلات في العصر الحديث، قصة الحاج عثمان دابو رحمه الله تعالى من جمهورية جامبيا في أقصى الغرب الإفريقي رواها الشيخ عبدالرحمن الصويان حفظه الله، وحدثنا بشيء من تفاصيل تلك الخطوات المدهشة، فقد زاره قبل وفاته في منزله في إحدى رحلاته إلى إفريقيا بقريته الصغيرة قرب العاصمة بانجول، وحدثه عن رحلته الطويلة قبل ستين عامًا إلى البيت العتيق، حجَّ تلك الأيام ماشيًا على قدميه برفقة أربعة من أصحابه، حجُّوا من بانجول إلى مكة قاطعين قارَّة إفريقيا من غربها إلى شرقها، وهكذا هي الأشواق إذا اعتلجت في الفؤاد، لم يركبوا في تلك الرحلة إلا فتراتٍ يسيرة متقطِّعة على بعض الدواب إلى أن وصلوا إلى البحر الأحمر، ثم ركبوا السفينة إلى ميناء جدة، وكانت رحلتهم تلك فريدة ومليئة بالعجائب والمواقف الغريبة التي لو دوِّنت لكانت من أكثر كتب الرحلات صدقًا وعاطفة وإثارة وعبرة، استمرَّت الرحلة أكثر من سنَتين، ينزلون أحيانًا في بعض المدن للتكسُّب والراحة والتزوُّد لنفقات الرحلة، ثم يواصلون الخطوات نحو البيت العتيق..

يقول الداعية: سألته: أليس حجُّ البيت الحرام فرضًا على المستطيع وأنتم في ذلك الوقت غير مستطيعين؟!

قال: نعم، ولكنا تذاكرنا ذات يوم قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام عندما ذهب بأهله إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله الحرام، فقال أحدنا: نحن الآن شباب أقوياء أصحاء فما عذرنا عند الله تعالى إن نحن قصَّرنا في المسير إلى بيته الحرام؟! خاصة أننا نظن أن الأيام لا تزيدنا إلا ضعفًا، فلماذا التأخير؟! خرج الخمسة من دورهم وليس معهم من القوت إلا ما يكفيهم لأسبوع واحد فقط، وأصابهم في طريقهم من الجوع والتعب والإعياء والشدة واللأواء ما لا يعلمه إلا الله، فكم من ليلة باتوا فيها لا يجدون طعامًا ولا كساءً حتى كادوا يهلكون، كم من ليلة طاردتهم السباع وفارقهم لذيذ المنام، ولم يكتحلوا بطعم السهاد ولا لذة الكَرى، وكم من ليلة عرض لهم قطَّاع الطريق، فحوصروا وطردوا، وضاقت بهم المسالك ودخلوا في الشعاب، واختفوا في الوديان وتسلقوا الجبال وولجوا الكهوف.

ومن عشقَ الصباحَ عليهِ هانت = مراقبة النُّجومِ إلى الصباحِ

يقول الحاج عثمان دابو:

لدِغت ذات ليلة في أثناء السفر، فأصابتني حمى شديدة وألم عظيم أقعدني وأسهرني، وشممت رائحة الموت تسري في عروقي.

يا لهفَ قلبي على تلك الدِّيارِ ويا = شوقي إليها ويا وَجدي ويا وَصبي

فكان أصحابي يذهبون للعمل، وكنت أمكث تحت ظل شجرة إلى حين عودتهم عند انحدار الشمس للمغيب، فكان الشيطان يوسوس لي:

أما كان الأولى أن تبقى في أرضك؟!

لماذا تكلِّف نفسك ما لا تطيق؟!

ألم يفرض الله الحج على المستطيع؟!

لكن الأشواق إلى رؤية بيت الله تعالى ومواطئ الأنبياء، كانت أشد في قلبي من تلك الوساوس كلها.

وأقسمُ أنِّي لا أميل عن الهوى = وما أنا في هذه الأليَّة حانثُ

فكيف سُلوي واشتياقي دائمٌ = إذا رثَّ منه باعثٌ جد باعثُ

ظلَّ هؤلاء يسيرون في رحلتهم ويحثون تلك الخطوات الجميلة نحو بيت الله الحرام يجوبون الرُّبا والمهامَه، ويجدُّون السير والسُّرى، ويمرون مرور السحاب من على البلاد والقرى، وفي أثناء الطريق مات منهم ثلاثة كان آخرهم في عرض البحر، واللطيف في أمره أنه قال في وصيته لصاحبيه: إذا وصلتما إلى المسجد الحرام، فأخبرا الله تعالى شوقي للقائِه، واسألاه أن يجمعني ووالدتي في الجنة مع النبي، هنا بالله عليك عند هذا الموقف ألا تسيل العبرات؟

ألا يرق القلب؟ ألا تتحرك العواطف وتجيش المشاعر؟

لقد قام يدفنه وحاله:

**خليليَّ قوما فابكيا لمصابهِ = بِمهتلِّ دمعٍ ليس ترقى سواكبهْ**

**يعزّ علينا أن نراهُ ببرزخٍ = تمازج تربَ الأرضِ فيهِ ترائبهْ**

**سقى قبرَهُ الغيثُ الملثُّ وأمطرت = عليهِ من الرِّضوانِ سحًّا سحائبهْ**

قال عثمان دابو: لما مات صاحبنا الثالث نزلني همٌّ شديد وغمٌّ عظيم، وكان ذلك أشدَّ ما لقيت في رحلتي، فقد كان أكثرنا صبرًا وقوة، وخشيت أن أموت قبل أن أنعم بالوصول إلى تلك المشاعر، فكنت أحسب الأيام والساعات.

فلما وصلنا إلى جدَّة مرضت مرضًا شديدًا، وخشيت أن أموت قبل أن أصلَ إلى مكة، فأوصيت صاحبي أن إذا متَّ أن يكفنني في إحرامي ويقربني قدر طاقته إلى مكة لعل الله تعالى أن يضاعف لي الأجر ويتقبلني في الصالحين.

مكثتُ في جدة أيامًا ثم واصلنا طريقنا إلى مكة، بعد أن تدثّرنا بإحرام الحج كانت أنفاسي تتسارع والبشر يملأ وجهي، والشوق يهزني ويشدني إلى الوصول إلى المسجد الحرام، سكت الشيخ قليلًا، وأخذ يكفكف عبراته، وأقسم بالله تعالى أنه لم ير لذَّة في حياته كتلك اللذة التي عمرت قلبه لَمَّا رأى الكعبة المشرفة، قال: لما رأيت الكعبة سجدت لله تعالى شكرًا، وأخذت أبكي من شدَّة الرهبة والهيبة كما يبكي الأطفال..

انخرطتُ في بكاء عميق من الفرح والسعادة تجللته هيبة وقشعريرة..

يا ألله..

هذا مثوى المشتاقين..

هنا تسكبُ عبرات الشوق، وزفرات الحنين..

هذا العقيقُ وذيْ ربا أزهارهِ = فانشقْ عبيرَ خزامهِ وعرارهِ

وأنخْ مطيَّكَ في حماهُ فإنهُ = حمد السُّرى يهنيكَ طيب قرارهِ

فاسكبْ دموعكَ في ثَرى أعتابهِ = وامسح خدودكَ في ثرى آثارهِ

فيا لله ما أشرفه من بيت!

وما أعظمه من مكان!

ثم تذكرت أصحابي الذين تساقطوا في الطريق ولم يتيسَّر لهم مثل رؤيتي، فبكيت وحمدت الله تعالى على نعمته وفضله عليَّ.

هذه رحلة عثمان دابو من أقصى إفريقيا إلى مكة مشى عامين هو وأصحابه، فكم ليلة باتوا فيها على جوع وكم داهمتهم الظلماء ومسهم الكرب، ولدغتهم الثعابين وطاردتهم الوحوش، وحاصرهم قطاع الطرق ومات بعضهم في مسيره إلى الله، وتوقفت خطواته وهو يصارع الأشواق إلى مكة..

وما أجمل تلك المشاعر التي تجيش في فؤادك وأنت تقرأ ذلك الحديث الذي يحلق بك في عالم الجمال، فقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلًا زار أخًا له في قريةٍ أخرى، فأرصَد اللهُ له على مدرجَتِه ملَكًا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غيرَ أني أحببته في الله عز وجل قال: فإنِّي رسول الله إليك بأن اللهَ قد أحبَّك كما أحببته فيه..".

الله يحبك..

ما هذا الجمال؟

ما هذا العطاء السماوي؟

ما هذه الغيث الإلهي؟

ما هذا الكرم الرباني؟

 هل خطوت خطوات ذات يوم على قدميك لتزور أخًا لك في الله وعشت وتفاعلت مع هذا الحديث وروحانيته المذهلة؟

ما معنى أن يحبك الله؟

لقد وصل بالمحدثين أن يبوبوا باب: "مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ في الجهاد وفي غيرهِ من الطاعات".

وتحت هذا الباب نجد حديثين الأول: حديث عَبَايَة بْن رِفَاعَةَ قَالَ أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَى الْجُمُعَةِ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: (مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ الله، حَرَّمَهُ الله عَلَى النَّارِ).

 والثاني حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: (لا يَجْمَعُ الله فِي جَوْفِ رَجُلٍ غُبَارًا فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانَ جَهَنَّمَ وَمَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ الله حَرَّمَ الله سَائِرَ جَسَدِهِ عَلَى النَّارِ).

هنا نعرف قيمة أن تمشي خطوات في سبيل الله، وأن تتلطخ قدماك بغبار الأرض، فتُرى مغبرَّة بلون التراب، ونلمح عظم الأجر والثواب والفضل من الوهاب عز وجل؛ حيث الحماية من نار جهنم الموقدة بسبب تلك الخطوات اليسيرة..

هل تعلم أكثر حديث في فضائل الأعمال يترتب عليه الكم الهائل من الأجور والرصيد الضخم من الحسنات؟

إنه حديث المشي إلى الجمعة فيه من الأجور الشيء المدهش، حتى إنه ليفوق أجر كل الأعمال التي وردت في كتب الحديث..

فقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "من غسل يوم الجمعة واغتسل، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، فدنا من الإمام فاستمع ولم يلغ، كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها".

وهذا الحديث لم يرد حديث مثله في عظم الثواب والأجر فمن مشى خمسمائة خطوة كتب له أجر خمسمائة سنة، ومن مشى ألف خطوة كتب له أجر ألف سنة، فما أعظم هذا الأجر وما أجزل هذا الثواب الذي يحصل عليه المسلم، من خلال تلك الخطوات التي يخطوها إلى بيت الله يوم الجمعة.

شاهدت فيديو متداولًا في وسائل التواصل لشيخ كبير في السن أعمى قد ربط بينه بيته وبين المسجد حبلًا، فإذا ما أذن المؤذن أمسك بطرف ذلك الحبل وخطى خطواته إلى المسجد، فتعجبت وقلتُ: ما عذر الشاب الصحيح القوي المعافى الذي يسمع النداء كل يوم خمس مرات وبيته بجوار المسجد، ومع ذلك يتثاقل تلك الخطوات..

إن قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [التوبة: 46]، مخيفة للغاية تشعر وأنت تقرأها أنك إن تكاسلت عن عبادة أو طاعة، فذلك إنما كره الله قيامك المتثاقل لها فلم يوفقك..

كان أبو بكر يودع أسامة رضي الله عنه وأرضاه، وأسامة يذهب لتنفيذ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فقال أسامة: "يا خليفة رسول الله، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما عليَّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله..".

وكأن أبا بكر ما غبَّر قدمه في سبيل الله، وهو الذي منذ أسلم وقدمه مغبرة في سبيل الله، كأنه ما غبَّر قدمه وهو الذي هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رفيقه في تلك الرحلة المحفوفة بالأخطار..

وكأنه ما رافق النبي صلى الله عليه وسلم في كل المشاهد ويا للعجب وهو يحرص الآن أن يغبر قدميه خطوات..

وكيف النجاة غدا إذا جاء الصحابة يوم القيامة وقد حفيت أقدامهم حتى لفوا عليها الرقاع والخرق ماذا سنقول، وما الخطوات التي ستسجل في صحائفنا؟

وإن من أعجب ما رأيت في أيامي وتنقلي بين البلدان شيخًا عاميًّا كبيرًا في السن لا تفوته تكبيرة الإحرام البتة، ودومًا كان يسألني عن ثواب إدراك تكبيرة الإحرام، وحكم من يتأخر قليلًا لبضع ثواني بعد تكبيرة الإمام والضابط لذلك، ومن كان يحافظ عليها من السلف وأسئلة كثيرة تدل على شغفه بها إلى نخاعه، وبجواره دكتور في الشريعة يصلي في بيته ولا يخرج إلا نادرًا للمسجد بحجة أن صلاة الجماعة سنة وليست بواجب..

بل وصل به الأمر أن يصلي حتى مع ضيوفه إن زاره أحد في بيته، فيتعجبون منه وبيته أقرب بيت للمسجد، وقد علمتُ من قصة الرجلين أن التوفيق بيد الله وأن الشهادات والألقاب والمناصب لا تساوي شيئًا في ميزان الله، وأن درجات الآخرة منح يوزعها مالكها كيف يشاء..

جميلة تلك الخطوات إلى صلاة الفجر وكم يرقص القلب طربًا مع حديث "بشِّر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة".

يقول النخعي: "وكانوا يرون أن المشي في الليلة الظلماء إلى الصلاة موجبة، يعني توجب المغفرة".

هذه الخطوات التي تخطوها مسجلة شاهدة لك تعرض عليك، فتفرح وتطمئن إلى عظيم فضل الله وكرمه وجوده، وإن أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم، فأبعدهم ممشى كما ثبت ذلك في الحديث..

ومن عظم فضل الخطوات إلى المساجد أن الملائكة اختصمت فيه؛ كما جاء في حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، قال: أحسبه قال في المنام، فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو قال في نحري، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى، قلت: نعم، قال: في الكفارات والكفارات المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه..".

وقد ذكر شيخ المفسرين الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ [يس: 12].

 (مَا قَدَّمُوا) قال: أعمالهم.

وقوله: (وَآثَارَهُمْ) يعني: وآثار خطاهم بأرجلهم، وذكر أن هذه الآية نـزلت في بني سلمة عندما أرادوا أن يقربوا من مسجد رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم؛ ليقرب عليهم فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لهم: يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، يعني الزموا دياركم تكتب لكم آثاركم؛ أي خطاكم إلى المسجد..

وإذا خرج الرجل إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعه الله بها درجة، وحط بها عنه خطيئة..

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصًا على المشي إلى مصلى العيد، واتباع الجنازة والطواف والسعي وغيرها من مواطن العبادات، ولم يكن يركب إلا من حاجة أو مصلحة راجحة لعظم أجر الخطوات، واقتفى الصحابة أثره، فقد حرصوا أشد الحرص على تكثير خطاهم في العبادات، ومن ذلك قصة الرجل الأنصاري الذي كان منزله بعيدًا، وكان يمشي كما في صحيح مسلم عن أبي قال: "كان رجل لا أعلم رجلًا أبعد من المسجد منه، وكان لا تخطئه صلاة، فقيل له: لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء، وفي الرمضاء قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد أني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إلى أهلي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد جمع الله لك ذلك كله".

وكان أنس بن مالك رضي الله عنه إذا مشى يقارب بين الخطى لتكثر خطاه إلى المسجد.

زرت أستاذًا دكتورًا في علوم اللغة العربية قد جاوز الستين من عمره، فإذا به منطوٍ في زاوية بيته، قد أدمن النظر في كلمة عربية غريبة باحثًا عن أصلها ومشتقاتها، وأخبرني أنه منذ أسبوع على هذا الحال، فسألته عن حاله وحال الناس من حوله، فأخبرني أنه قابع في زاوية بيته، منعزل عن مجتمعه، وقام يكثر من الشكوى والتذمر، وعدم كفاية الراتب، وغلاء الأسعار، وإهمال طلابه له، وجهل الناس قدره، فعرفتُ أنه ليس له أي تأثير في محيطه..

خرجتُ من زيارته فلمحتُ شيخًا عجوزًا يغذ السير فأسرعت لألحق به، فإذا بي أعرفه ويعرفه الحي كله، وله نبأ عجيب مع الخطوات اليومية، فرغم أنه جاوز الخامسة والسبعين من العمر إلا أنه لا يكل ولا يمل، ولا يفتر من أن يغذ السير في الحي، والمدينة بأكملها، عرفتُ أنه كان بالأمس متبعًا لجنازة، واليوم زار مريضًا، وغدًا سيواسي منكوبًا، وبعد غد سيستخدم وجاهته، فسيشفع لصاحب حاجة، وفي جدوله خلال هذا الأسبوع زيارة متخاصمين للإصلاح بينهما، ورد زوجة لزوجها، وزيارة أخته التي تبعد عنه ثمانين كيلو، وهكذا ديدنه ليس له إجازة طول الأسبوع، فعجبتُ منه ومن الأول، وعلمتُ أن من الخذلان أن يقترب الإنسان من النهاية، ويسخِّر وقته كله فيما لا يفيد، فما جدوى البحث عن كلمة غريبة وحرث المعاجم والقواميس عنها، وتضييع الوقت بدل الضائع فيها وليس من وراء ذلك نفع للإنسان ولا للأمة..

وعلمتُ أن السعادة كل السعادة أن يكون للإنسان جدول أعمال أسبوعي يتضمن خطى كثيرة في الخير، وغبطتُ أصحاب الوجاهات كيف أنهم يشفعون لفلانُ، ويصلحون بين فلان وفلان، ويسعون لخدمة الآخرين وسعادتُهم بذلك لا تنتهي، ولفت انتباهي حديث عظيم جليل له وقع كبير، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهرًا»..

أتعقل هذا؟

إنه يقصد الاعتكاف في مسجد المدينة شهرًا كاملًا للعبادة..

أي فضل كهذا..

وأعظم من هذا تكملة الحديث، ففيه: «وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يُثْبِتَهَا، أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامُ».

إن المشي في قضاء حاجات الإخوان أجر وخير وذخر، لا يحصل عليه إلا من هو من أصحاب الحظوظ، فكن منهم..

رتِّب جدول لخطواتك حتى تكون من الناجحين، وتذكر أن أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، فزر مريضًا، وعُد مبتلًى، وأصلح ما استطعت، وسرْ لا تقف، فالعمر ينصرم ولا تدري غدًا أين أنت، وما رزقك الله رجلين إلا لتحركهما..

ما أثَّر فيَّ قبل رحيلي من اليمن لأول مرة أغادرها إلا ذلك الأربعيني المشلول الذي زرته في بيته؛ فبكى لأنه يسمع النداء ولا يستطيع أن يجيب فخطواته لا تسعفه للمشي..

من الخطوات التي تَفرح نفسي بها زيارة المساجد العتيقة التي هجرها الناس، أو نادرًا ما يصلي فيها أحد، فكثيرًا ما أجد فيها مع رائحة القِدَم عودة روحي إليَّ وأنسي بذكر ربي..

كنتُ أتأمل في حديث القاتل الذي قتل مائة نفس، ثم أخبره ذلك العالم أن له توبة لكن عليه أن يتوجه لتلك القرية الصالحة، ويترك قرية السوء فوجدت أمرًا مذهلًا..

ذهب يحث خطاه فأدركته المنية في منتصف الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقاسوا فوجدوه أقرب لقرية الصلاح، فاستلمت روحه ملائكة الرحمة، والأمر المذهل هو أنه كان أقرب لقرية الصلاح بقدر نوءة ناءها بصدره..

"فنأَى بِصَدْرِهِ نحوها"، تخيَّل معي هذا المشهد، إنه يصارع اللحظات الأخيرة كأني به قد انهار وانطرح أرضًا، وخمدت حركته، ووهنت أعضاؤه، وتوقفت رجلاه عن المشي، فلم تعد تحمله ومع ذلك ينوء بصدره..

يا ألله، أي حب من هذا التائب لأن يخطو لديار الصلاح ولو كان زحفًا على صدره..

تلك النوءة كانت لحظة فارقة في حياته، وهي وإن كانت بمقدار لحظة إلا أنها تعدل عمره..

وفي رواية: "فَوَجدُوه إِلَى هَذِهِ أقربَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ له"، شبر واحد فقط رجَّح بكل المسافات التي قطعها في حياته، شبر واحد فقط كان أجمل من كل خطى حياته، لا تتثاقل خطوات السير خمس مرات كل يوم لملاقاة الملك، فعسى أن يجازيك أن تكون ضمن قوافل السائرين يوم المزيد، فلا سير أجمل منه يومئذ..

سر إلى الله بقلبك، وارتحل إليه بروحك، ولتكن لك مع الله خلوات عساه أن يجعلك من السائرين إليه في الدنيا بقلوبهم الوافدين إليه غدًا يوم المزيد...